الفصل الثالث

حكم الاسرة الكومنينية ١٠٨١ ــ ١١٨٥ م

ينحدر اصل الاسرة الكومنينية الى اصول اغريقية. استقرت في وقت ما في اقليم ادرنه. وقد تألق نجم هذه الاسرة في المجتمع البيزنطي، لكونها اصبحت تشكل احدى الاسر الاقطاعية العسكرية الكبيرة. نجح ابناؤها وعلى رأسهم الكسيوس كومنين ــ المؤسس للاسرة، بعد تربعهم على العرش الامبراطوري ان يقيموا من جديد السلطان الامبراطوري المنهار، ويعيدوا الحيوية للامبراطورية التي انهكت قواها الفوضى التي استمرت نحو ثلاثة عقود، ويعطوها قرناً اخر من العظمة والمجد بالرغم من الصعاب الكبرى التي صادفوها (٩٩).

يعتبر الكسيوس Alexius ١٠٨١ ــ ١١١٨ م مؤسس الاسرة. كان رجلاً ذكياً حافز الذهن قوى الارداة وقائداً شجاعاً بهرت شجاعته اعين معاصريه في الوقت الذي كان فيه دبلوماسياً ماهراً. كان الكسيوس احد الشخصيات المتألقة في القصر في ظل حكم الامبراطور ميخائيل دوقاس، وسطع نجمه وتألق في المعارك التي خاضتها الامبراطورية ضد الاتراك. وقد تمكن من الوصول الى العرش الامبراطوري بعد الاطاحة بالامبراطور المغتصب نقفور الثالث بوتانياتس (١٠٨٧ ــ ١٠٨١ م)، ولكي يدعم نفوذه ويضمن مساندة وتأييد اولئك الذين قد ينازعونه على العرش تزوج من ايرين دوقاس. والواقع ان عظمة هذا الامبراطور

تتجلى في تصديه لاعداء الامبراطورية في الخارج واعادة فرض سلطة القانون والنظام داخلها (١٠٠).

اما يوحنا الثاني John.II. (١١١٨ ــ ١١٤٣ م) فلم يكن دونه في التحلي بالمؤهلات العالية. وقد نشأ نشأة صارمة وكان على خلق قويم. كما كان لايقر حياة الترف والاسراف وقد عرف عنه الكرم والذكاء. وهكذا استحق بفضل شخصيته وخصاله كنية Calo-John اي « يوحنا الطيب ». ولشجاعته الفائقة وشغفه بتحقيق الشهرة العسكرية قدر مسؤولية الحكم حق قدرها.

واذا كان ابوه قد اضطلع بمهمة الدفاع عن حدود الامبراطورية، فقد عمل يوحنا على توسيع رقعة دولته واستعادة ولاياتها المفقودة واعادة الامبراطورية الى سالف عزها. ولذلك قضى يوحنا معظم ايامه في الحروب، احبه شعبه واخلص له الولاء. ولذلك اعتبر درة اسرة كومنين. وبعد حكم دام ثمانية وعشرين عاماً وثمانية شهور توفي مخلفاً وراءه ابنه مانويل (١٠١).

كان مانويل الاول Manuel.I. (١١٤٣ ــ ١١٨٠ م) موجوداً على مقربة من ابيه في قيليقيه لحظة وفاة والده. وكان مانويل كأبيه شخصية محبوبة الا ان ابرز مايميز تلك الشخصية هو الثقافة العالية التي كان يتحلى بها. كان سياسياً نشطاً طموحاً. وقد ادخل بعض اجزاء من جنوب ايطاليا داخل نطاق نفوذه بعد الانتصارات العسكرية التي كان قد حققها على النورمان. ولهذا اعتبر اخر الاباطرة العظام الذين جلسوا على العرش الامبراطوري (١٠٢).

اما الامبراطور اندرور نيقوس (١١٨٣ ــ ١١٨٥ م) فهو اخر الاباطرة الكومنينيين. جمع مواهب وخصالاً متعددة، فقد جمع بين الشجاعة القتالية والدبلوماسية الى جانب حبه للدسائس والمغامرة والقسوة البالغة. اشتهر بمغامراته العاطفية الصاخبة وفضائحه في المرحلة الاولى من حياته. الا انه بعد ان تربع على

---

(100) Oman, Op. Cit, p. 257, Finlay, Op. Cit, p. 64

(101) Vasiliev op,cit, Vol. 2, p375-6Oman, Op. Cit, p-269, Finlay, op. cit, p-158

(102) Finlay, Op. Cit, p. 177. 178

العرش وبفضل مااظهره حينئذ من مقدرة كبيرة اجبر معاصريه على اعتباره من الاباطرة البيزنطيين العظام (١٠٣).

سياسة آل كومنين اتجاه

١ــ السلاجقة :

لم يعش السلطان الب ارسلان طويلاً حتى يجني ثمار نصره العظيم، ويواصل فتوحاته ويحقق اهدافه البعيدة جميعها فقد قتل بعد عام وبضعة اشهر من هذا الفوز الكبير، على يد احد الثائرين.

فقد دب خلاف بينه وبين اصهاره من الدولة الالخانية وكان الب ارسلان اذ ذاك مشغولاً يستعد لقتال البيزنطيين، فلما فرغ من امر رومانوس فكر في التوجه الى الشرق لقمع فتنة الالخانيين فعبر نهر جيجون في اوائل عام ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م وهاجم احدى القلاع الثائرة واستولى عليها، وقبض على قائدها، وكان يسمى يوسف الخوارزمي، ونظراً لما ابداه هذا القائد من عناد في مقاومة السلطان، فقد رغب السلطان الب ارسلان في قتله بنفسه، ويقال انه امر باحضاره امامه فلما مثل بين يديه رماه بسهم، ولكن السهم اخطأه، وكان يوسف هذا يخفي سكيناً في ساقه فاخرجها وهاجم السلطان على حين غره وطعنه بها طعنة فتوفي متأثراً بجراحه، بعد اربعة ايام من هذه الحادثة في العاشر من ربيع الاول من العام نفسه، ودفن في مدينة مرو بعد ان حكم تسعة اعوام ونصف تقريباً (١٠٤).

وعقب مصرع السلطان الب ارسلان قام وزيره نظام الملك في مواصلة تنفيذ السياسة التي رسمها السلطان من قبل، فلم تضع مجهودات الب ارسلان سدى بعد وفاته بل ظل البناء قائماً بفضل حكمة وزيره، ومعاونته لابنه وخليفته ملكشاة حتى استطاع ان يلي العرش ويوطد سلطته ويوسع حدود بلاده.

---

(103)Ibid, p. 251-269

(١٠٤) البنداري ــ المصدر السابق ــ ص ٤٧ ــ ص ٤٨

واصل السلطان ملكشاه مابدأه ابوه في توطيد نفوذ السلاجقة في آسيا الصغرى ومقارعة البيزنطيين في عقر دارهم. فتوجه في نفس عام ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م في بلاد آسيا الصغرى بفتح بلدانها الواحدة تلو الاخرى حتى قيل انه « وضع في النواحي التي فتحها من الروم خمسين منبراً اسلامياً » (١٠٥) وقد وصلت قواته الى اسوار القسطنطينية، وعندها ارغم البيزنطيين على دفع جزيه كبيرة قدرها ٣٣٠،٠٠٠ الف دينار بيزنطي سنوياً (١٠٦). وعلى اثر رجوعه من بلاد اسيا الصغرى عين جده سليمان بن قتلمش حاكماً على كل الاراضي التي كان قد سيطر عليها مبتدأ حكم دولة عرفت باسم دولة سلاجقة الروم التي ظلت تحكم هذه البلاد الى عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م. رجع بعدها السلطان ملكشاة الى خراسان ليطمئن على استتباب امور دولته في الشرق. لكن ماحدث في بلاد الشام ادى الى انفراد تتش بحكم تلك البلاد بعد ان تمكن من قتل آق سنقر حاكم حلب، بذلك نجح تتش في تأسيس دولة سلاجقة الشام (١٠٧). الا ان تتش لم يلبث طويلاً حتى قتل هو الاخر فورثه في حلب ابنه الاكبر رضوان وفي دمشق ولده الاخر دقاق. ومن جديد يبدأ الصراع بين الاخوين منذ عام ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م، وفي غمرة الصراع هذا وصلت الحملة الصليبية الاولى الى بلاد الشام.

اما بالنسبة الى دولة سلاجقة الروم، فكما ذكرنا ان حاكمها الامير سليمان بن قتلمش الذي عينه السلطان ملكشاه عام ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م قد استقر في نيقيه، ولقب نفسه بالسلطان، واعترف الامبراطور الكسيوس كومنين الذي كان يرزح تحت مهام اخرى عام ١٠٨٢ م بكل الاراضي التي بحوزته في آسيا الصغرى (١٠٨). كما اذعنت له انطاكية عام ١٠٨٥ (١٠٩).

وعقب مصرع السلطان سليمان عام ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م انقسمت دولة سلاجقة الروم بين ابنائه الذين اعترف بهم السلطان ملكشاه حاكماً نيابة عن ابيهم.

---

(١٠٥) البنداري ـــ المصدر السابق ـــ ص ٥٧

(١٠٦) البنداري ـــ المصدر نفسه ـــ ص ٥٧

(107) Finlay, Op. Cit, p. 109

(108) Finlay, Op

وخلال الفترة مابين ١٠٨٩ ــ ١٠٩٠ م قام حاكم ازمير (١١٠) الامير زاخاس Tzachas بتجهيز اسطول كبير هدد فيه القسطنطينية وقلق الامبراطور الكسيوس من ذلك التهديد ولكنه لم يفقد شجاعته في صدهم. وقد صادف موت السلطان ملكشاه عام ١٠٩٢ م وتقسيم الامبراطورية السلجوقية بين ابناء الاسرة السلجوقية واستغل البيزنطينيون ذلك ليستعيدوا مركزهم في آسيا الصغرى. واضطر السلطان قليج ارسلان الاول ١٠٩٢ ــ ١١٠٦ م للموافقة على عقد الصلح مع الامبراطورية (١١١).

ويبدو ان دولة سلاجقة الروم رغم قوتها الظاهرية الا ان عوامل الضعف والوهن بدت تنتابها وتنخر فيها وظلت كذلك الى ان قيض الله مجيء السلطان قليج ارسلان الثاني عام ١١٥٦ م ليبعث بها الحياة من جديد.

فعلى اثر موت السلطان قليج ارسلان الاول عام ١١٠٦ م ضعف سلاجقه الروم صعفاً بالغاً. وقد انتهز الامبراطور الكسيوس كومنين هذه الفرصة فقام باستعادة جزء كبير من سواحل آسيا الصغرى وخاصة الممتدة بين بحر مرمرة Heliespont وأطاليا Attalia الى السيادة البيزنطينية بعد ان كانت بايدي السلاجقة الروم (١١٢).

وعندما مات الامبراطور الكسيوس كومنين عام ١١١٨ م خلفه ابنه يوحنا الذي كان على مايبدو انشط من والده فيما يتعلق بالشؤون الاسيوية. فقد كرس جهوده على اعادة مد الحدود البيزنطينية حتى انطاكية ونهر الفرات. ومن اجل تحقيق ذلك بدأ بالهجوم اولاً على ممتلكات السلاجقة في شمالي وغربي آسيا الصغرى يتمكن من استرجاعها (١١٣).

---

١) وتسميها المصادر الاجنبية (Smyrna)

(111) Finlay, Ibid, p. 151

(122) Finlay, Ibid, p. 151

(113) vasiliev,Op. Cit, PP. 415-416

وفي عام ١١٣٠ م امتد القتال الى بفلاجونيا Paphlagonia وشقت الجيوش البيزنطينية طريقها الى نهر هاليس واستعادت جانجرا وغيرها من ايدي السلاجقة، وارجعت بذلك الى الامبراطورية تلك الاقاليم التي كان قد مر على فقدها امد طويل. وحتى نهاية حكم الامبراطور يوحنا كانت الحرب ضد السلاجقة المسلمين واعادة آسيا الصغرى هما هدفه الرئيسي (١١٤). فقد قاد حملة ضده قيصرية عام ١١٣٩ م (١١٥). وفي عام ١١٤٢ م وهو على شفا الموت كان يفكر في استرجاع بلاد الشام (١١٦).

وحين تولى مانويل العرش الامبراطوري عام ١١٤٢ م كانت سياسته تتركز على مايبدو في الاهتمام بالغرب اكثر من الشرق. مما اتاح الفرصة لان يتنفس الاتراك السلاجقة الصعداء ليقوموا بأعادة بناء وحدتهم التي هي مصدر قوتهم وانتصاراتهم (١١٧).

لقد التف الاتراك السلاجقة خلال الفترة ١١٥٦ ــ ١١٩٢ م حول زعيم ماكر وذكي هو السلطان قليج ارسلان الثاني الذي اظهر ولاءه وتأييده للأمبراطور الجديد مانويل. وقام عام ١١٦٢ م بزيارة وديه للقسطنطينية حيث قوبل مقابلة تتسم بالابهة (١١٨).

وعلى اثر هذه الزيارة سمح للسلطان قليج ارسلان بالقضاء على منافسيه الواحد تلو الاخر وخلق دولة موحدة قوية بدلاً من الامارات المتنافسة (١١٩).

لم تكن فترة الاثني عشر الممتدة من عام ١١٦٢ م وهي السلة التي زار فيها قليج ارسلان القسطنطينية حتى عام ١١٧٤ م فترة سلام مطلق بين السلاجقة والامبراطورية البيزنطينية. فكثيراً ماقامت القبائل السلجوقية الرحل بانتهاك حدود

---

(114) Finlay, Op. Cit, PP. 175-176

(115) Speros Vryonis, Op. Cit, P. 119

(116) Oman, Op. Cit, p. 270

(117) Vasiliev, Op. Cit, p. 417

(118) Ibid, p. 427

(119) Finlay, Op. Cit, p. 233-234